






9 - Sultan Selim Mosque

نعـم، ونـجم من نجـوم العـرب غاب، وفارس من فرسان الكَلمة رحل.

بالأمس شيعتـه، وقـد كان ملء سمـع الـزمـان وبصـره، عالماً نافذ البصر، وشاعراً مَطوِي الفؤاد على فحـوَى الشعـر(١)، ووراقـاً نديم زمـانـه، وموسوعياً قليل النظير في أبناء عصره(٢).

حملت نعشـه الأكف من صفـوة القـوم، بالـذي في قلوبهم له، ماضرهم أنهم قليل وهم في أنفسهم كثير، وماضره أنهم قليل بعد إذ فرغ من علائق الحيـاة الدنيا، وجاور الرفيق الأعلى، قريرَ العـين، رضيَّ النفس، ناعم البـال، معه مايرجو أن يكون في صحيفة أعماله ثواباً ومغفرةً ورضواناً(٣).

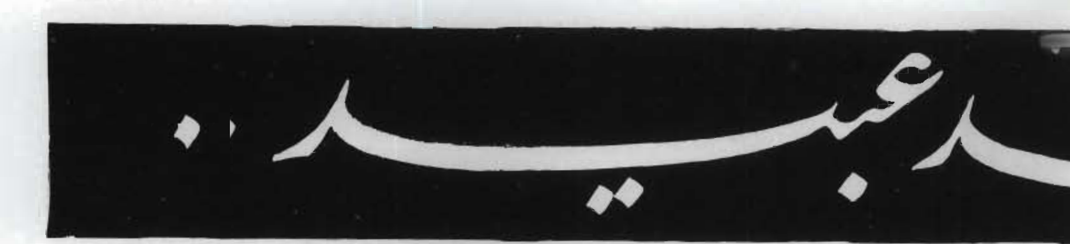
هذا (أبـو الطـيِّـب)(٣) في نعـشـه

(*) كانت الكلمة في الأصل استجابة وجدانية خالصة من كاتبها الأستاذ البحاثة محمد عدنان الجوهرجي لوفاة الرجل الكبير في ذاتها أولاً، ثم للذي حزَّ في نفسه وبلغ منه حين رأى قلة من خرج مشيعاً ثانياً.

وكـان ضم إليهـا لمحـات من شخصية الرجل، رأى كلمات من تكلمـوا في تأبينـه خلت منها، ورأى في تقييدها، على نزارتها، تقييداً لمادة بأمثالها تكتب تراجم الرجال.

وهـذان ـ الـرثـاء والـترجمـة ـ مطلبـان من مطـالب التعبـير الإنساني، إن صح وسهل أن يأتلفا في النفس، لم يسهل أن تأتلف العبـارة عنهـا في الفن، بابة أحدهما الشعر، وبابة الآخر التاريخ، وشتان ماهما.

وكـانت المنـاسبـة، حين كانت تأبينـاً، جديرة أن تستوعب بحرارتها فرق مابين اتجاهي العبارة في السياق الواحد، فلما تراجع الـزمن، ورجـع التأبين ذكرى، استعلن في المكتوب، من اختلاف أجـزائـه، ماكـان عسى أن يكـون خفيـاً، وكـاد يكون عيباً ماكان عندك، في نفس الأمر، إجادة وإحساناً.



...ـوم تهدّم

بقلم الأستاذين: عز الدين البدوي النجّار* ومحمد عدنان الجوهرجي

قومــوا انظــروا كيـف تسـيرُ الجبـالْ

ودعته محزون القلب، مُهْراقَ الدمع، عالماً أنه قد انهدم للأمة بنيان، وانهار صرح، وأن ههنا فقداً لايستدرك، وثُلمةً لاتُرْأب، وفراغاً لايسد.

أثرى الفقيد المكتبة العربية بنفائس من الكتب تصنيفاً وتحقيقاً، وبروائع من عيون الشعر والحكمة، هما للأجيال القادمة ذخيرة باقية وتراث خالد، وترك في نفوس عارفيه، فوق ذلك، ذكرياتٍ لاتبلى، هي موعظة وعبرة، وهي علم وعرفان.

وقد أتيح لي، لتأخر زماني وتقدم زمانه رحمه الله، أطراف من ذلك، فمنذ نحو من خمس وأربعين سنة، وأنا آنذاك إلى أن أكون طفلاً أقرب، استوقفني والدي رحمه الله أمام «المكتبة العربية»(٤) وقال:

«يابني، هذا هو الشاعر الأديب أحمد

وكنت حين دفع إلي الأستاذ عدنان أصل كلمته ـ ثقة منه بي حفظه الله ـ على بينة من هذا كله، وكنت فيما أحاول من إصلاح ماأسند إلي إصلاحه: بين أن أتولى ظواهر اللفظ، وأتوقف فقط عند مايتوقف فيه من أنحاء التعبير، وبين أن أعمد إلى المادة المتاحة مجردة فأبني منها بناء آخر، يصححه الفن، ثم لايلتوي على التاريخ.

غير أني وجدت نفسي، لاعتبارات عدة، آخذاً في مسلك وسط: أحتفظ فيه بعفوية ماكتبه الأستاذ في صورته الأولى من جهة، وأتصرف بوجوه من التصرف، لاتصادم هذا الذي كتب من جهة أخرى.

ووجدت نفسي مدفوعاً أيضاً، من حيث لاأدري، إلى أن أزيد في الكلمة زيادات يتم بها تمامها، ويكتمل لها ماأراده الأستاذ من معنى الترجمة والتاريخ.

وقد جاء من مجموع ذلك ماتراه بين يديك: هو بالقياس إلى الأستاذ الكاتب استجابة مني له وتشكرٌ في آن، وهو في ذكرى العلامة الفقيد نوع مشاركة وإسهام، وهو من بعد هذا وذلك، استحياء لضربٍ من العمل الأدبي، لاتَعْدَمُ أن تجد له في تاريخ الأدب أصولاً، وماتنفك تطالعك له نظائرُ وأشباه.





عبيد، الذي قوم لي بيتين من الشعر، احتلا مكان الصدارة على غلاف مجلتي «سمير العرب»(٥).

وماكنت أدري حينذاك، أني في مُستأنَفِ الزمان، سوف أجري مع هذا الرجل في حَلْبَةٍ واحدة، هو فارسها المُجَلِّي، وهو المشار إليه بالبنان.

فلقد وجدتني، بعدما انجلت عني غَمْرَةُ الصبا، منجذباً إلى عالم الكتاب الواسع الغريب، لايحول بيني وبينه حائل، ولا يردني عنه رادّ، حتى دراستي للحقوق في جامعة دمشق، وقد كان يمكن أن تستغرقني بطبيعة مادتها مرةً واحدةً، لم تكن هي ذاتها إلا دافعاً آخر من دوافع ماوجدتني مستأسراً له، منجذباً إليه، حتى إذا انجلت هي الأخرى، وتبين لي أن عالمي هو عالم الكتاب وحده، ورأيت أني منغمس فيه لامحالة، كانت المكتبة العربية وصاحب المكتبة العربية، قِبْلَةً لي أتيمَّمُها حيث كنت، إذ كانت المورد والمصدر، وكانت المادة والمعين، وكانت المَعلمَ والدليل.

كانت «حرفة الوراقة» ـ بعد «حرفة الأدب»

ـ قد أدركتني منذ نحوٍ من ثلاثين سنة، منذ أوائل الستينات من هذا القرن، وكنا في دمشق، قريباً من عشرة نَفَرٍ، أنا أصغرهم سناً وأقلهم دراية بهم كانت تقوم سوق الكتاب، مخطوطه ومطبوعه، وإليهم كانت تؤول الشوارد، ومن عندهم كانت تُجتَنى النوادر، ففي مضطَرَبِنا ذلك، وحين كان دلال الكتب(٦) يسعى فيما بيننا بالكتاب، لعلنا لانعرف من حاقٍّ أمرهِ ماهو أهل له، وكان التهافت عليه اغتراراً، أو الزهدُ فيه جهلاً: إفراطاً أو تفريطاً لايَحْمد مَغَبَّتَها منا أحد، فإذا كان الأمر كذلك، كان أحمد عبيد نجمَ الهدايةِ الذي نلحظه خِفيةً أوجهراً، وكان رأيُه الرأي، وقولُه الفَصْلَ، وإشارتُه العارضة هي الحَتمَ المُجاب.

وكنت أنا، بجملة أسبابي، أقرب إليه منهم، وأدنى إلى أن أغترف من بحره، وأقتبس من فوائده، فكنت لاأزال معه في الحين بعد الحين، بين مطبوع يُعرِّفني قَدْرَه، أو مخطوطٍ يكشف لي غوامضه: عنوانَه إن تَصحَّف أو تحرَّف، واسم مؤلفهِ إن جُهلَ أوتَزَيَّف، وخطَّه إن أشكَلَ والتَبَس، ومكانَ وجودِ نُسخهِ، أو النَّص على انفرادهِ ويُتمِه، إلى غير ذلك مما تعرفه الجماعة(٧)، ويعرفه من دفع إلى المضايق في هذه الصناعة، تسعفه في ذلك حافظةٌ واعيةٌ، واستحضار مُعجِبٌ، وجلدٌ ودأبٌ في البحث والتنقير.

* * *

كان رحمه الله رَبْعَةً من القوم أو يكاد، هو إلى القصر أقرب، متين البنيان، ركيناً، مَهيباً، حذراً، حَذِر التوقد والألمعية، لاحَذِر التردد وفساد الرأي، تراه إذا مشى كما تراه إذا جلس، وكما تستمع إليه إذا تحدث: وقوراً في ذلك كله، مستوي النبرة، ساكن الطرف، هادىء القَسَمات، تتلامح إليك من وراء ذلك وفي خلاله ابتسامةٌ خفيفةٌ، ورقةٌ ودماثةٌ، لاتخطىء أن تردها منه إلى طبيعة صافية، ونفس رضية، وخلق مستقيم.

عاونه في عمله حيناً من الدهر شابٌ طُلَعَةٌ، مرهف الحسِّ، مشبوب العاطفة، لم يكد... حتى استوى في حَلبة الأدب عوده، وحتى ارتفع في سماء الفكر نجمه وتوالى صعوده، هو الأديب العالم الدكتور شكري فيصل، عضو مجمع دمشق، وعضو المجامع العربية، رحمه الله.

حتى إذا كانت السبعينات، وكان قد انقضى على رحلته مع الكتاب العربي نَحوٌ من ستين عاماً، وطال الدرب، وتَرامَى المسير، كان حظ دارته منه أكبر، وكان تردده على «مكتبته العربية» أندر وأقل.

فمن غريب مااتفق أثناء ذلك، أن الأستاذ العلامة العلم محمود محمد شاكر، حين زار دمشق زَوْرَتَه الأولى في صيف ١٩٧٥، لم يكن على باله، من رجالاتها، أن يسعى إليه ليزوره أحد، إلا الأستاذ أحمد عبيد، فحين قَصَد قصده ليراه في مكتبته، وماكان مستطيعاً أن يفعله إلا في وجهه ذلك، كان من غريب الاتفاق، أن يكون الرجل في ذلك اليوم عينه في مكتبته، وكأنما كانا على ميعاد.

والتقى الرجلان بعد دهر طويل، وكان حديث ممتع، استردا خلاله قطعةً من أيام لهما خلَت، واسترد من شهده طرفاً من تاريخ العربية



فات.

وكما كان «الكتاب» علماً على الرجل وشعاراً له(٨) في أول زمانه، كذلك كان عند مُختَتَمِه ومُنتَهاه، ورجع عنده - أعني الكتاب - بعد أن كان في بعض ذلك عملاً، إلى أن كان علماً بحتاً وأنساً وسلواناً.

فبعد أن انقطع الرجل عن «المكتبة» أو كاد، وولّى الدنيا صفحةَ وجهه، ونفض يده من الكتاب مهنةً، أقبل عليه بِجُمعِ نفسه صاحباً، وخَلَص للرجل عند ذاك معنى العالِم فيه، وتقطعت بينه وبين الأشياء الأسباب، فماله من همٍّ إلا كتابٌ يراجعه أو يرجع إليه: كشفاً لمشكل إن كان، أو تنبيهاً على صواب.

ولقد حَضرتُه في السنة التي توفي فيها رحمه الله (١٤٠٩ - ١٩٨٩) وهو يراجع، لنفسه، مطبوعة كتاب ابن قتيبة «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث»(١٠).

فرأيته في بيته، كما كنت أراه أبداً في عمله: عالماً ثَبْتاً، ومشتغلاً، على الكِبَر، جَلْداً، ورأيت من عمله في هذا الكتاب نموذجاً من نماذج التحقيق المتقن: رأيت عنايته بترقيم النص، في وزن عنايته بتقويمه، هما في ذلك عنده سواء، إذ كان الخلل فيهما جميعاً مَزَلّةً للقارىء، وحجاباً، أحياناً، بينه وبين مايقرأ.

وكتاب ابن قتيبة هذا من آخر ماعكف عليه قارئاً ناقداً، ومصححاً ثقة، بل لعله آخر ماعكف عليه، بهذا الاعتبار، على الإطلاق.

وقد كان من وداعه لي يومذاك - وهو وداعي له أيضاً، فما لقيته بعدها قط - قولُه ناصحاً شفيقاً، بشيء كان بالقياس إليه دستور حياته:

«اعلم يابني أن الله يعلم السرَّ وأخفى، فاتق الله في عملك، فإن تقواك ذخرك في مستقبلك، وزادك لآخرتك.

وهذا من قوله رحمه الله، آخر ماأفادَنيه وأجَلُّه، وهو آخر عهدي به.

رحمك الله (أبا ياسين)، وأنزلك منازل الأبرار، ونفعك بصادق عملك

﴿يَوْمَ تجدُ كلُّ نفسٍ ماعَملتْ من خَيرٍ مُحضَراً﴾

(١) مرثيته في لِدَته ورفيق عمره الدكتور حسني سبح (رئيس مجمع اللغة العربية) إحدى أوابد الشعر في العصر الحديث: جلالةَ نفسٍ، وعمق عاطفةٍ، وروعة جرْسٍ، وهي من الدليل على تمكنه من الكلمة الشعرية، وأنها منه في أعمق أعماق وعيه، قالها قبل وفاته بعام وبعض العام، حتى ليخيل إليك أنه إنما كان يرثي فيها نفسه أيضاً.

(٢) كان مَعْلَمةً حافلةً، تجلى بعض مافيها فوائد واستدراكات على «أعلام» الزركلي، رفيق عمره الآخر، عليهما رحمة الله.

(٣) أملى هذا الموضع إحساس مباشر بالرجل، يجده وجداناً ظاهراً من عرفه من كتب، لاسيما في سنواته الأخيرة، ثم وقَفَنا الأستاذ رجاء عبيد عَرَضاً بعد ذلك، على ورقة كتبها رحمه الله لنفسه، هذه هي بحروفها:

الخاتمة

وأسأل الله الكريم تحقيقها

لقد اصْفَيتُ إلا من يقيني
بأن الله في العُقبى يقيني
وأني سوف أوتَى باليمين
كتابي حين يأتيني يقيني

(١٠٤٣ - ١٩٨٣)

فإذا هي شاهد بظهر الغيب، على معنى ماكنت تملك عليه إلا مجرد الحس.

والتبيان بعد من بديع ماتوافق عليه الطبع والصنعة في أشعار الناس، وهما أغرب وأكبر - بهذا الاعتبار نفسه - ممن وطىء التسعين، وكاد يخرج، بجملة الحال، من أن تُعايِرَ مايكون منه بقانون الطبع والصنعة، وسائر مايجري هذا المجرى من قوانين

الآداب.

(٣) هي كنيـة الفقيـد التي كان يكتني بها في عالم الأدب، وهي (اسمه المستعار) الذي كان (يوقع) به مالايريد التصريح باسمه فيه، مما ينشره من الشعر خاصة، ذكره بها الشاعر الفحل محمد البزم في واحدة من مقالاته النقدية في شعراء الشام، المنشورة في جريدة «الميزان» السورية (١٣٤٤ ـ ١٩٢٥)

قلت: و«أبو الطيب» هذه، اسماً مستعاراً، من فائت «معجم الأسماء المستعارة وأصحابها» لم يذكره المؤلف فيما ذكره من أسماء المعاصرين.

هذا والبيت المُنشَد فوق، ثاني ثلاثة أبيات لعبد الله بن المعتز في رثاء عبيد الله بن سليمان بن وهب، ورواية البيت في ديوانه: هذا أبو القاسم، وهي كنية عبيد الله.

(٤) هي مكتبته الشهيرة التي كاد يرادف وجودها وجوده روحاً وتاريخاً (تأسست ١٩٠٨)، والقائمة الآن في شارع غسان، أحد روافد سوق الحميدية من الجنوب، وقد كانت قبل ذلك في سوق الحميدية نفسه مرتين: عند أول السوق ـ مما يلي «المسكية» ـ مرة، وفي أواخره ـ متجهة غرباً ومواجهة «جامع الأحمدية» ـ مرة أخرى، عمرها الله بأصحابها، ونفع بها وبهم.

هذا ولايفوت المؤرخ أن يرى في تحرك «المكتبة» مرات ثلاثاً في اتجاه معين واحد ـ مبتدئة من سوق «المسكية» أولاً، ثم مبتعدة عنه ـ نموذجاً لاطراد النمو في دمشق نفسها، وفي ابتعاد وجوه النشاط فيها، شيئاً بعد شيء، عن مراكزها التقليدية.

(٥) مجلة الوالد رحمه الله «سمير العرب» (١٩١٧)، من بواكير الصحافة العربية في بلاد الشام، جاشت بها نفسه في تلك الفترة المبكرة، كما جاش بأمثالها أمثاله.

(٦) هو المرحوم حسين الشويكي (أبوزهير)، ولم تكن الدلالة على الكتب عمله، بل كان كتبياً، مكتبته في «المسكية» (سوق الكتب الدمشقي الشهير) على الجانب الأيمن منها (على يمين القادم إلى الجامع الأموي من بابه الغربي) وكانت مع مكتبات السباعي والمحروس وآخرين عند نهاية هذا الجانب، ثم لما تقدمت به السن ترك مكتبته، وتشاغل بالدلالة سنيات يسيرة، توفي بعدها رحمه الله، وهو آخر من أدركناه في دلالة الكتب، قام بعده فيها من لم يستقل بها إلا أياماً معدودة، ثم ضاق صدره بها، وزهد فيها، فتركها البتة.

(٧) جماعة المشتغلين بالكتاب القديم: مخطوطه ومطبوعه، وقليل ماهُم.

(٨) كانت اللوحة التي تحمل اسم «المكتبة العربية» حين كانت المكتبة تلقاء جامع الأحمدية، نمطاً مألوفاً في تلك الفترة: مستطيل يتوسط ضلعه الأعلى، بمساحة مناسبة، نصف دائرة، وكان مكتوباً في نصف الدائرة ذلك ـ ربما بخط الخطاط الشهير ممدوح ـ شطر بيت المتنبي: (وخير جليس في الزمان كتاب)، مغيرة فيه كلمة (الزمان) إلى (الأنام) غيرها صاحب المكتبة الأديب، وقد بلغ من سيرورة البيت على ألسنة الناس ـ بصورته هذه المغيرة ـ أنهم نسوا معه مافي أصل الديوان.

فمن طريف مااتفق في ذلك ماحدث به الأستاذ أحمد عبيد نفسه، فيما يحكيه عنه الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ: أنه أنشد مرة صديقاً له بيت المتنبي على وجهه، وفيه مافي ديوانه: «الزمان» فقال له الصديق: ألا تراك غيرتَ البيت؟ أليست الرواية: «الأنام» لا «الزمان»؟!

قلت: وهذا شيء كنت سمعته من الأستاذ النفاخ منذ نحو من عشرين سنة، وذكرته حين بدا لي أن أضم إلى أصل كلمة الأستاذ عدنان أشياء مما عرفته رواية، أو كنت حاضِرهُ شهوداً ومعاينةً، فاستثبتُّ فيه الأستاذ أولاً، ثم فاوضت فيه الأستاذ رجاء عبيد، نجل الفقيد، بعد ذلك، فكان مما وافق من حديثه حديث الأستاذ أن اللوحة ربما كانت بخط ممدوح، وزاد فأفاد أن من أنشدَ البيت إنما هو الشاعر الكبير شفيق جبري . . .

ثم حين انتقلت «المكتبة» إلى حيث هي قائمة الآن في شارع غسان، تقدم الأديب العالم إلى الخطاط الكبير بدوي الديراني (تلميذ ممدوح) في كتابة شطر البيت على مافي الديوان، فكتبه . . . وارتفع بذلك موضع خلاف ممتع، وانحسمت مادة جدل طريف، وطويت إلى الأبد، صفحة من محاسن القوم لن تعود.

واليوم، يدخل الداخل إلى المكتبة، فيستقبله على زجاج باب في صدرها، شطر البيت الشهير بخط الخطاط الكبير، فلا يرى فيه، حين يراه، إلا أثراً مُعجباً ساكناً، يتلقى الناظرَ الغريبَ بصمت، وهو، لمن يعرفه، يمورُ بالحياة من ورائه تاريخ . . .

(١٠) تعقب فيه كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤): «غريب الحديث» في نيف وخمسين موضعاً، جعلها من تمام ماشرع فيه من إكمال عمل أبي عبيد في كتابه ذلك، والذي كان من ثمرته كتابه هذا «الإصلاح» وكتابه الآخر «غريب الحديث».

وعلى أن «إصلاح» ابن قتيبة لم يسلم له كله، فتعقبه فيه غير واحد من الأئمة، وردوا عليه طائفة مما رده على أبي عبيد.